الأمنُ الفكري: الحِصنُ الرَّكينُ لمُجتمع الانتظار

بقلم: رئيس التحرير

في عصرٍ تتسارعُ فيه التَّحولاتُ الفكريّةُ، ويَتزايدُ فيه التَّداخلُ بينَ الثَّقافات، وتَعدُّدُ مصادرِ المَعرفة، وانتشارُ الأفكارِ المُتباينة، يُصبحُ الأمنُ الفكريُّ ضرورةً لا غنى عنها لحماية العقولِ من الاضطرابِ، والانحرافِ، والتَّشكيكِ المُمنهج. لم يَعدِ التَّهديدُ الذي يُواجهُ الإنسانَ مُقتصرًا على الحروبِ العسكريّة أو الأزماتِ الاقتصاديّة، بل أصبحَتِ العقولُ نفسُها ساحةً للصِّراع؛ حيثُ تُزرَعُ فيها الأفكارُ المُضلِّلةُ، وتُسلَبُ منها القُدرةُ على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

لقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى هذه الحقيقة منذُ قرون، مُؤكِّدًا أنَّ المعركةَ الحَقيقيّةَ ليسَت فقط بينَ القُوى السِّياسيّة أو الاقتصاديّة، بل بينَ الرُّؤيةِ السَّليمة للوجودِ وبينَ التَّصوُّراتِ المُنحرفة التي تُضلِّلُ الإنسانَ عن هدفه الحَقيقي. يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

إنَّ هذا التَّحذيرَ الإلهيَّ لا يُعالجُ مسألةَ المعلوماتِ المَغلوطة فقط، بل يَتجاوزُ ذلك ليَضعَ أساسًا عَميقًا للأمنِ الفكريِّ، وهو أنَّ العقلَ مَسؤولٌ عن المعرفةِ التي يَكتسبُها، وأنَّه لا يَجوزُ له أن يَبنيَ أحكامَه على الظُّنونِ والشُّبهات. ومن هنا، نجدُ أنَّ القرآنَ لا يُقدِّمُ الفكرَ كعَمليّةٍ عَقليّةٍ مُجرَّدة، بل يَربطُه بالبَصيرةِ، والمَسؤوليّة، والوَعي العَميقِ بحَقائقِ الوُجود.

لقد جعلَ الإسلامُ حفظَ الفكرِ من الانحرافِ جزءًا من منظومةِ الأمنِ الإنسانيِّ الشامل، فكما

أنَّ حمايةَ النَّفسِ من الأذى، والمالِ من الضَّياعِ، والعِرضِ من الانتهاكِ، هي ضَروريّاتٌ لحياةٍ كريمة، فإنَّ حمايةَ العقلِ من التَّضليلِ والتَّشويشِ الفكريِّ هي شَرطٌ أساسٌ لسلامةِ الإنسانِ نفسه؛ لأنَّ العقلَ هو البوّابةُ الأولى التي تُحدِّدُ مسارَه في الدُّنيا والآخرة. ولهذا أكَّدَ القرآنُ الكريمُ على أنَّ الأمنَ الحَقيقيَّ يَبدأُ من استقامةِ الفكرِ، وصحّةِ الرُّؤيةِ، ونقاءِ التَّصوُّرِ عن الله، والوجودِ، والإنسان، فقال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢].

إنَّ الفكرَ حين يَضِلُّ، يَجرُّ الإنسانَ إلى طريقٍ مُنحرف، حتى وإنْ ظنَّ أنَّه يَسير في الاتِّجاهِ الصَّحيح، ولهذا كان القرآنُ يَحثُّ الإنسانَ دائمًا على التَّحقُّق، والتدبُّر، والتأمُّلِ في المَعلومةِ قبلَ تبنِّيها؛ لأنَّ الانحرافَ الفكريَّ ليسَ مُجرَّدَ خطأٍ في المَعرفة، بل هو زَلَلٌ يُؤدِّي إلى سقوطِ الإنسانِ في الضَّياعِ والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

في هذا السِّياق، يأتي الحديثُ عن الأمن الفكريِّ في القرآن الكريم، لا بوَصفه مُجرَّدَ قضيّةٍ ثقافيّة، بل لكَونه ضَرورةً إيمانيّةً، ومَبدأ حضاريًّا، ومَنهجًا قرآنيًّا لحمايةِ الإنسانِ من السُّقوطِ في فَوضى الأفكارِ والشُّبهات. فالأمنُ الفكريُّ هو مشروعٌ مُتكاملٌ لصياغةِ عَقلٍ واعٍ، وقادرٍ على التَّمييزِ، ومُحصَّنٍ وضدَّ التَّشويشِ، ومُنفتحٍ على الحوارِ، ومُلتزمٍ بالبَحثِ عن الحَقيقة.

من هنا، فإنَّ البحثَ في هذا الموضوعِ لا يَقتصرُ على كونه دراسةً مَعرفيّةً، بل هو خطوةٌ ضَروريّةٌ لفَهمِ كيفَ يمُكنُ القرآنَ أن يكونَ حارسًا للعقلِ المُسلم، وضامنًا لاستقامته، ودَليلاً لتَفكيره، في زمنٍ تَتشابكُ فيه الاتِّجاهاتُ الفكريّةُ، ويَحتاجُ فيه الإنسانُ إلى بوصلةٍ قرآنيّةٍ تَهديه إلى الصِّراطِ المُستقيم.

أوّلًا: الأمنُ الفكريُّ في القرآن الكريم: المَفهوم والأسُس

إنَّ الحديثَ عن الأمن الفكريِّ، في القرآن الكريمِ، لا يمُكنُ أن يُختزَلَ في مَنعِ الأفكارِ الهدّامة،

أو مُواجهة التيّارات الفكريّة المُنحرفة فحسب، بل هو مَفهومٌ أوسَعُ وأعمَقُ، يَقوم على إرساءِ مَنهجٍ مُتكاملٍ لصياغة الفكرِ الإنسانيِّ وفقَ ميزانِ الحقِّ واليَقين، بحيثُ يكونُ الإنسانُ قادرًا على التَّمييزِ بينَ الصَّوابِ والخَطأ، والحَقيقةِ والزَّيف، والاستقامةِ والانحراف.

١- مَفهوم الأمنِ الفكريِّ في ضَوءِ القرآنِ الكريم

يُعرَّفُ الأمنُ الفكريُّ بأنَّه حالةُ الاستقرارِ العَقليِّ، التي تَجعلُ الإنسانَ قادرًا على مواجهةِ الشُّبهاتِ والأهواءِ، دونَ أن يَنحرفَ أو يَضلَّ. فالقرآنُ الكريمُ يُقدِّمُ رؤيةً واضحةً للأمنِ الفكريِّ، تتمثَّلُ في الوضوحِ العَقديِّ، والتَّحقُّقِ المَعرفيِّ، والتَّوازنِ بينَ العقلِ والوَحي. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ [محمد: ١٩]؛ حيثُ يُؤكِّدُ القرآنُ أنَّ العلمَ واليَقينَ أساسُ الأمنِ الفكريِّ، وأنَّ أعظمَ ما يُحصِّنُ العقلَ من الضَّياعِ هو الإيمانُ القائمُ على التَّحقُّقِ والتثبُّتِ، لا على الظُّنونِ والاتِّباعِ الأعمى.

٢- العلاقةُ بينَ العقل والأمن الفكريّ في التصوُّر القرآنيّ

يَرى القرآنُ الكريمُ أنَّ العقلَ ليس مُجرَّدَ أداةٍ للتَّفكير، بل هو مسؤوليّةٌ أمامَ الله، لذلك نجدُ أنَّ الآياتِ التي تُخاطبُ العقلَ تتكرَّرُ بأسلوبِ التَّحفيزِ على التأمُّلِ والتدبُّر، يقولُ تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]؛ حيثُ تُشير الآيةُ إلى أنَّ الجمودَ الفكريَّ، والانغلاقَ عن التَّفكير، والغَفلةَ عن التدبُّر، كلُّها عواملُ تُهدِّدُ الأمنَ الفكريَّ للإنسان، وتَقودُه إلى أن يكونَ أداةً بيدِ التَّضليلِ والجَهل.

وفي مقابلِ ذلك، نجدُ أنَّ القرآنَ يُؤكِّدُ على أنَّ الأمنَ الفكريَّ الحقيقيَّ لا يتحقَّقُ إلا من خلالِ الجمعِ بينَ العقلِ والإيمان، بينَ التَّفكيرِ السَّليمِ واليَقينِ الرّاسخ. يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وفي

هذا تأكيدٌ على أنَّ التَّفكُّرَ في آيات الله هو الطَّريقُ الأصيلُ لترسيخِ الأمنِ الفكريِّ، بحيثُ يكونُ العقلُ متَّصِلاً بالحقائقِ الكُبرى، وليسَ مُتلاعِبًا بالأوهامِ والظُّنون.

٣- أهميّةُ اليَقينِ في بناء الفكرِ السَّليم

من أبرَزِ أزماتِ الفكرِ المُعاصِرِ حالةُ انعدام اليقين والشَّكِّ المُستمرِّ؛ حيثُ باتَ الإنسانُ في مواجهةِ فيضٍ من المعلوماتِ المُتناقضة، وهذا جعلَه يَفقِدُ الثِّقةَ في الثَّوابت ويَعيشُ في قلقٍ فكريٍّ دائم.

لكنَّ القرآنَ الكريمَ يَضعُ اليَقينَ شَرطًا أساسًا لحمايةِ الفكرِ من التَّذبذُبِ والانحراف، ويُؤكِّدُ أنَّ الحقيقةَ ليسَت نسبيّةً، كما يُروِّجُ لها الفكرُ الماديُّ، بل هناك حقائقُ راسخةٌ لا يُمكِنُ تجاوُزُها. يقول تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الحاقة: ٥١]. فالإنسانُ الذي يَعيش في حالةِ يَقينٍ فكريٍّ لا يكونُ ضحيّةً للتَّشكيكِ المُنهجِ، ولا يَقع فريسةً للتيّاراتِ الفكريّةِ المُتطرِّفة أو المُضلِّلة؛ لأنَّ عقيدتَه راسخةٌ، ومَنهجَه ثابتٌ، وقناعتَه مَبنيّةٌ على الحقائق الإلهيّةِ التي لا تتغيَّرُ بتَغيُّرِ الأزمنةِ والظُّروف.

٤- دورُ التفكُّرِ والتدبُّرِ في تَحصين الفكر

يَضع القرآنُ الكريم التدبُّرَ والتفكُّرَ في آيات الله باعتباره أحدَ أعظَمِ الوسائلِ لحمايةِ الفكرِ من الاختراقاتِ والانحرافات: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧]. إنَّ هذه الدَّعوةَ إلى التأمُّلِ في المخلوقاتِ ليسَت مُجرَّدَ دعوةٍ معرفيّة، بل هي أساسٌ لصياغةِ عقلٍ مُتَّزِن، قادرٍ على تحليل الظَّواهرِ، والتَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وتَحصينِ الفِكرِ من التَّلاعبِ الإعلاميِّ والثَّقافيّ الذي يَستهدفُ زعزعةَ يَقينِ الإنسان.

بناءً على ما تقدَّمَ، يتَّضحُ أنَّ الأمنَ الفكريَّ في القرآن الكريم ليسَ مُجرَّدَ تَحصينٍ ضدَّ الانحراف، بل هو مشروعٌ مُتكاملٌ لإعادة بناءِ العقلِ على أُسُسٍ مَنطقيّةٍ وإيمانيّةٍ سَليمة. فمِن خلالِ اليَقينِ،

والتفكُّر، والتثبُّت، والتدبُّر، يَتمكَّنُ الإنسانُ من حماية عقله من الانحراف، وبناءِ رؤيةٍ واضحةٍ وثابتةٍ حولَ الحقائقِ الكُبرى، بحيثُ لا يكون عرضةً للتيّاراتِ الفكريّةِ المُتذبذِبةِ.

ثانيًا: التَّهديداتُ الفكريّة في القرآن الكريم والتَّحذير منها

لا يَقتصر منهجُ القرآنِ الكريم في بناءِ الأمنِ الفكريِّ على ترسيخِ المَبادئِ الصَّحيحةِ والتَّوجيهِ نحوَ التَّفكيرِ السَّليم، بل يَمتدُّ أيضًا إلى التَّحذيرِ من التَّهديداتِ الفكريّةِ التي يُمكنُ أن تُضلِّلَ الإنسانَ، وتُبعدَه عن الحقِّ، وتُوقعُه في فخاخِ الشكِّ والتَّزييف. فالقرآنُ يُقدِّمُ تصوُّرًا شاملاً عن المَخاطرِ التي تُهدِّدُ الفكرَ السَّليم، ويَضعُ لها قواعدَ للتَّحصينِ والتَّعاملِ معها، حتّى يَبقى الإنسانُ مُحافظًا على عقله، مُتمسِّكًا بالحقِّ، غيرَ قابلٍ للاختراقِ الفكريِّ أو الانحرافِ العَقديّ. من هذه التَّهديداتِ التي تحدَّثَ عنها القرآنُ الكريم:

١. التَّزييفُ الفكريُّ والتَّحريفُ المقصودُ للحَقائق: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦].

٢. الهَوى بصفته مصدرًا للانحرافِ الفكريِّ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣. تأثيرُ الشُّبهات والفتنِ على العُقول: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ [البقرة: ١٤].

٤. التَّقليدُ الأعمى وغيابُ التَّفكيرِ النَّقديّ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠].

٥. التَّلاعبُ الإعلاميُّ والتَّضليلُ الثَّقافيُّ: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقد وضعَ القرآنُ الكريم أُسُسًا مَتينةً لتَحصينِ الفكرِ من الانحراف، وذلك من خلال:

- تَنميةِ التَّفكيرِ النَّقديّ، والتَّحقُّقِ من المَعلوماتِ قبلَ تَبنِّيها.
- التَّمييزِ بينَ الحقائقِ والدِّعاياتِ المُضلِّلةِ، وعدمِ الانسياقِ وراءَ كلِّ فكرةٍ جديدةٍ دونَ تَحليل.
- مُمارسةِ التَّفكُّرِ والتدبُّرِ كأساسٍ للوصول إلى الحَقيقة، بدلاً من التَّقليدِ الأعمى.
- تَرسيخِ مَفهومِ اليَقينِ الإيمانيِّ، بحيثُ لا يكونُ العقلُ عُرضةً للشُّكوكِ المُستمرّة.

بهذه المَبادئ، يُصبحُ الأمنُ الفكريُّ ليسَ مُجرَّدَ وسيلةٍ للحمايةِ من الضَّياعِ، بل أداةً لصناعةِ عَقلٍ مُستقلٍّ، قادرٍ على قيادة الأمّةِ نحوَ الوَعي الحَقيقيِّ والاستقامةِ الفكريّة.

ثالثًا: وسائلُ تَحقيقِ الأمنِ الفكريّ وفقَ المَنهجِ القرآنيّ

إنَّ بناءَ الأمنِ الفكريِّ، في ضوءِ القرآنِ الكريم، ليس مُجرَّدَ تَحصينٍ ضدَّ الانحرافِ، بل هو عمليّةٌ مُتكاملةٌ تَشملُ التَّربيةَ، والتَّفكيرَ النَّقديَّ، واليَقينَ، والحِوارَ، والانفتاحَ الواعي على المَعرفة. فالقرآنُ الكريمُ يَضع مجموعةً من الوسائل والمَنهجيّاتِ التي تَجعل الإنسانَ قادرًا على مُواجهةِ الشُّبهاتِ، والتَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وبناءِ رؤيةٍ فكريّةٍ مُستقلّةٍ لا تَخضعُ للتَّضليلِ الإعلاميِّ أو التَّلاعبِ الأيديولوجيِّ. من هذه الوسائلِ التي أشارَ إليها القرآنُ الكريم:

- التَّعليمُ القائمُ على التَّفكير والتدبُّرِ: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].
- الحوارُ المَنهجيُّ من أجل بناءِ الفكرِ السَّليم: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].
- تعزيزُ الهويّةِ الإيمانيّةِ باعتبارها حاجزًا أمامَ الاختراقاتِ الفكريّة: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [المائدة: ١٥].

- تحقيقُ التَّوازنِ بينَ الانفتاحِ والحَذرِ الفكريِّ: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦].
- ترسيخُ مفهومِ «التحقُّق» في تلقِّي المَعلومات: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات: ٦].

وبناءً على هذه الوسائلِ، يمُكِنُ القولُ: إنَّ القرآنَ الكريمَ يُقدِّمُ مَنهجًا مُتكاملاً لتَحقيقِ الأمنِ الفكريِّ، لا يَقتصِرُ على التَّحصينِ ضدَّ الأفكارِ المُنحرفةِ، بل يمَتدُّ إلى بناءِ عقليّةٍ واعية، قادرةٍ على التَّعاملِ مع المعرفةِ بوَعيٍ ونقدٍ وتمَييز.

رابعًا: الأمن الفكريُّ وبناء الحضارة الإسلاميّة

عبرَ التّاريخِ، كانَت الأفكارُ المُنحرفةُ هي العاملَ الأساس في تَفكُّكِ الحضاراتِ وسُقوطِ الأمَم؛ حيثُ يُؤدِّي انتشارُ الأوهامِ، والشُّبهاتِ، والتطرُّف، والتَّقليدِ الأعمى، إلى انهيارِ الاستقرارِ الفكريّ، الذي يمُهِّدُ لانهيارِ المجتمعِ بأسره. وقد أكَّدَ القرآنُ على هذا المَعنى، مُحذِّرًا من أنَّ أيَّ أمّة تَفقدُ بوصلتَها الفكريّةَ تُصبحُ عرضةً للسُّقوط، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة:١١-١٢].

١ - التَّوازنُ بينَ الانفتاحِ والثَّوابت: مفتاحُ الأمنِ الفكريّ الحَضاريّ

أيُّ مَشروعٍ حضاريٍّ لا يمُكِنُ أن يَنهضَ إلا إذا كان هناكَ تَوازُنٌ بينَ الانفتاحِ على العالَم، والتمسُّكِ بالثَّوابت. فالمجتمعُ الذي يُغلِقُ نفسَه أمامَ التَّغيُّراتِ الفكريّة يَفقدُ قدرتَه على التَّفاعلِ مع العَصر، والمُجتمعُ الذي يتخلَّى عن ثوابته يَنتهي إلى الذَّوبانِ في الآخر. فالقرآنُ الكريمُ يَضع ميزانًا دقيقًا بينَ هذَين المَسارَين؛ حيثُ يَدعو إلى الانفتاحِ على المعرفةِ والتَّفاعلِ مع الأمَم، لكنَّه في الوقتِ ذاتِه يُحذِّرُ من الذَّوبانِ في الفكرِ المُنحرفِ أو التخلِّي عن القِيَمِ الإيمانيّة. يقول الله

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا التَّوجيهُ القرآنيُّ يُحدِّدُ ملامحَ الأمنِ الفكريِّ الحَضاري بـ:

- الانفتاحِ على الأفكارِ الجديدةِ، لكنْ وفقَ ميزانِ الحقِّ والعَدل.
- التَّفاعلِ مع الثَّقافاتِ الأخرى، دونَ التخلِّي عن الهويّةِ الإسلاميّةِ.
- التَّمييزِ بينَ التطوُّرِ الفكريِّ المَشروعِ، وبينَ الانحرافاتِ الفكريّةِ التي تُهدِّدُ القِيَمَ والمُعتقدات.

٢ - دورِ الأمنِ الفكريِّ في بناء مجتمعِ العَدالةِ والحريّةِ.

إنَّ الأمنَ الفكريَّ ليسَ مُجرَّدَ أداةٍ لحمايةِ العَقيدة، بل هو الأساسُ الذي يَقومُ عليه العَدلُ والحريّةُ في المجتمع. فحينَ يكونُ الفكرُ الإسلاميُّ مُحصَّنًا من التشدُّدِ أو التَّمييعِ، فإنَّه يُنتِجُ مجتمعًا مُتوازنًا، يَحترمُ حقوقَ الآخَرينَ، ويُقيمُ العَدلَ، ويَنشر قِيَمَ الرَّحمةِ والتَّسامُحِ، دونَ أن يكونَ عرضةً للضُّغوطِ الأيديولوجيّةِ الخارجيّة. وقد أكَّدَ القرآنُ على أنَّ غيابَ الفكرِ السَّليمِ يُؤدِّي إلى الظُّلمِ والاستبدادِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وهذا يُشيرُ إلى أنَّ غيابَ الأمنِ الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ مسألةٍ فلسفيّة، بل هو عاملٌ يُؤثِّرُ مباشرةً على العَدالة في المُجتمع. فحينَ تتلاعبُ القُوى الفكريّةُ بالمَفاهيمِ، وتُشوِّهُ المَبادئَ، يُصبحُ النّاسُ عاجزينَ عن معرفة الحقِّ، ويُؤدِّي ذلكَ إلى شيوعِ الظُّلمِ، وانتشارِ الاستبدادِ، وغيابِ العَدالة.

٣ - نحوَ استراتيجيّةٍ قرآنيّةٍ لتَعزيز الأمنِ الفكريِّ في الأجيال القادمة

في ظلِّ التَّحدِّياتِ الفكريّةِ الهائلةِ، التي تُواجِهُها الأمّةُ الإسلاميّةُ اليومَ، يُصبحُ من الضَّروريِّ

وضعُ استراتيجيّةٍ قرآنيّةٍ لتَعزيزِ الأمنِ الفكريّ؛ بحيثُ تكونُ قائمةً على:

- تعليمِ القرآنِ بوَصفِه مَنهجًا فكريًّا متكاملاً، لا مُجرَّدَ كتابٍ للأحكام الشَّرعية.
- غَرسِ مَنهجِ التحقُّقِ والتثبُّتِ في عقول الشَّبابِ؛ بحيثُ يتعلَّمونَ عدمَ تَصديقِ أيِّ معلومةٍ دونَ دليل.
- إعادةِ الاعتبارِ للحوارِ العَقليِّ والنِّقاشِ العِلميِّ بوصفهما وسيلةً لتَعزيزِ الأمنِ الفكريّ.
- دمجِ الدِّراساتِ القرآنيّةِ معَ العلومِ الإنسانيّةِ الحَديثةِ؛ بحيثُ يكونُ الفكرُ الإسلاميُّ قادرًا على تقديمِ رُؤيةٍ حَضاريّةٍ مُتكاملة.

٤ - الأمنُ الفكريُّ كشرطٍ لبقاءِ الأمّة

إنَّ بقاءَ الأمّةِ الإسلاميّةِ، واستمرارَها في أداء دورِها الرِّساليِّ، يَعتمدانِ بشكلٍ كبيرٍ على قُدرتِها على الحفاظِ على أمنِها الفكريِّ؛ لأنَّ الحضاراتِ لا تَنهارُ من الخارجِ قبلَ أن تَنهارَ من الدّاخلِ. ولذلك، فإنَّ إعادةَ بناءِ العقلِ الإسلاميِّ، وفقَ مَنهجٍ قرآنيٍّ مُتوازن، وتَحقيقَ التَّكاملِ بينَ الإيمانِ والعقلِ، وبينَ اليَقينِ والتفكُّرِ، وبينَ الانفتاحِ والحذرِ، وبينَ الثَّوابتِ والتطوُّرِ، هو السَّبيلُ الوَحيدُ لضَمانِ مُستقبلٍ فكريٍّ آمنٍ، ومُستقبلٍ حضاريٍّ مُزدهِر.

خامسًا: الأمن الفكريُّ بينَ القرآنِ والانتظارِ: نحوَ رؤيةٍ تمَهيديّةٍ لصناعة الوَعي المَهدويّ

إنَّ الحديثَ عن الأمن الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ مُعالجةٍ لقَضيّةٍ فكريّةٍ مَعزولةٍ عن سياقِها التّاريخيِّ والوجوديِّ، بل هو في صلبِ المَشروعِ الإلهيِّ الذي يَرسم مسارَ الإنسانَ نحوَ تحقيقِ العَدلِ الإلهيّ. فالأمنُ الفكريُّ في القرآن ليسَ مُجرَّدَ تَحصينٍ للعَقلِ من الانحرافاتِ والشُّبهاتِ، بل

هو جزءٌ من التَّمهيد لظُهورِ الإمامِ المَهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ حيثُ لا يمُكنُ لأمّةٍ أن تكونَ أمّةً مَهدويّةً وهي تُعاني من التمزُّقِ الفكريّ، والضَّياعِ بينَ الرُّؤى المتُضارِبةِ، وفقدانِ القدرةِ على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطل.

فالقرآنُ الكريمُ يَضع الأمنَ الفكريَّ شرطًا رئيسًا لصناعةِ مجتمعِ الشَّهادةِ والتَّمهيد؛ حيثُ لا يمُكنُ الأفرادَ أن يكونوا جُنودًا في معركةِ العَدلِ الإلهيِّ، وهم لا يَملكونَ وضوحًا فكريًّا، وثباتًا عَقديًّا، ورؤيةً قائمةً على اليَقينِ لا على الظنِّ والتَّشكيك. ومن هنا، نجدُ أنَّ القرآنَ يُعالجُ قضيّةَ الأمنِ الفكريِّ بوَصفِها معركةً مُستمرّةً بينَ الحقِّ والباطلِ، وبينَ الفكرِ الإلهيِّ الذي يَستندُ إلى اليَقين، والفكرِ البشريِّ الذي يمُكنُ أن يَنحرفَ بفعلِ الهَوى والتَّضليلِ ومَحدوديّةِ القُدرة. وهذا لا يتحقَّقُ إلا عبرَ مَنظومةٍ فكريّةٍ مُتماسكةٍ، تَحمي العقولَ من التَّلاعبِ، وتُجهِّزُها لدَورِ الشَّهادةِ والتَّمهيد.

١ - الأمنُ الفكريُّ كشرطٍ لانتظارٍ واعٍ ومَسؤول

إنَّ مفهومَ الانتظارِ في العَقيدة المَهدويّةِ ليس حالةً سلبيّةً من الترقُّب، بل هو مَشروعٌ فكريٌّ، وحالةٌ من الجُهوزيّةِ العَقليّةِ والنَّفسيّة، وعملٌ دَؤوبٌ لإعدادِ الأرضيّةِ لظُهورِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله تعالى فرجه الشريف. ومن هنا، فإنَّ الأمنَ الفكريَّ يُصبحُ شرطًا أساسًا لصحّةِ الانتظار؛ لأنَّ الأمّةَ التي تَعيشُ في فَوضى فكريّةٍ، وتَضاربٍ في الرُّؤى، وتُسيطِرُ عليها الشُّبهاتُ، لا يمُكنُها أن تكونَ أمّةً مُمهِّدةً.

فالانتظارُ ليسَ مُجرَّدَ إيمانٍ بحدثٍ مُستقبليّ، بل هو حالةٌ فكريّةٌ واعيةٌ تُدركُ طبيعةَ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وتمُيِّزُ بينَ المشاريعِ الفكريّةِ، التي تُسهمُ في التَّمهيد، وتلكَ التي تُعرقلُ المَسارَ المَهدويَّ. يقول الله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢].

إنَّ الإنسانَ الذي يَفقدُ الأمنَ الفكريَّ يَعيشُ في حالةِ تَخبُّطٍ فكريٍّ، ويَفقدُ القُدرةَ على اتِّخاذِ موقفٍ ثابت، فلا يكونُ مُؤَهَّلًا للانتظارِ الحقيقيّ؛ لأنَّه قد يَسقطُ في الشُّبهاتِ، أو يتأثَّرُ بالتيّاراتِ

الفكريّةِ المُنحرفة، أو يَنحرفُ إلى الغلوِّ والتطرُّف، على حين أنَّ الانتظارَ الواعي يَستندُ إلى رؤيةٍ مُتكاملةٍ، تَجعلُ الإنسانَ قادرًا على السَّيرِ بثَباتٍ نحوَ مَشروعِ العَدلِ الإلهيّ.

٢ - التَّمهيدُ يَبدأُ من وضوحِ الرُّؤية

إنَّ القرآنَ الكريمَ يُقدِّمُ مَنهجًا مُتكاملاً لتَحقيقِ الأمنِ الفكريّ؛ بحيثُ يكونُ الفكرُ الإنسانيُّ قادرًا على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، ومُقاومةِ التيّاراتِ المُنحرفةِ، والوقوفِ بثَباتٍ في مُواجهةِ التَّضليلِ الفكريّ. ومن أبرَزِ وسائلِ تَحقيقِ هذا الأمنِ الفكريّ:

أ- تَعزيزُ الوَعي من خلالِ التدبُّرِ والتفكُّرِ.

ب- مقاومةُ التَّزييفِ الفكريِّ والتَّحريفِ.

ج- إعادةُ بناءِ الهويّةِ الفكريّةِ المُستقلّةِ.

٣ - الأمنُ الفكريُّ وبناءُ مجتمعِ الانتظار

إنَّ المجتمعَ المَهدويَّ ليسَ مُجتمَعًا يُولَدُ فجأةً عندَ ظهورِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله فرجه الشريف، بل هو نتيجةُ عمليّةِ تمَهيدٍ طَويلة، يكونُ فيها الأمنُ الفكريُّ حجرَ الأساسِ. فالأمّةُ التي لا تمَتلكُ وضوحًا فكريًّا، ويَقينًا راسخًا، وقدرةً على تحليلِ الواقعِ، لا يُمكِنُها أن تكونَ في طليعةِ المَشروعِ الإلهيّ.

ولهذا، فإنَّ كلَّ جهدٍ فكريّ لحمايةِ الوَعي، وكلَّ مُواجهةٍ للتَّزييفِ الثَّقافيّ، وكلَّ عملٍ لنَشرِ الوَعي القُرآنيّ، هو جزءٌ من التَّمهيدِ للظُّهور؛ لأنَّ الإمامَ المَهديَّ عجل الله فرجه الشريف، لن يَقودَ مُجتمعًا هشًّا، بل سيَقودُ أمّةً بلغَت مرحلةً من النُّضجِ الفكريِّ الذي يَجعلُها قادرةً على حمل مَسؤوليّةِ العَدلِ الإلهيّ.

والعملُ على تحقيق الأمنِ الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ واجبٍ ثقافيٍّ أو مَعرفيّ، بل هو شرطٌ أساس لنكونَ أمّةً مُستعدّةً لاستقبالِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله فرجه الشريف، وقادرةً على بناء الحضارةِ الإلهيّةِ المَوعودة. فمَن يَطلبِ العَدلَ فعَليه أن يُهيِّئَ نفسَه بفكرٍ نقيّ، ومَن يترقَّبِ النُّورَ، عليه أن يُزيلَ ظُلماتِ الجَهلِ من عَقله؛ لأنَّ العَدلَ لا يُقيمُه إلا أمّةٌ شاهدةٌ، والمَهديُّ لا يَظهر إلا في مجتمعٍ جاهزٍ فكريًّا لحملِ الرِّسالة: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥].

لأهميّةِ هذا الموضوعِ، اخترنا في مجلّة (تَبيين) أن نُعالجَه في محورِ هذا العَدد، من خلال: التعرُّفِ على مفهومِ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنة ومُرتكزاته ومُعوِّقاته، ومَنهجِ الأنبياء عليهم السلام في تحقيقِ ركائزِ الأمنِ الفكريّ، ودَورِ الإعلامِ في تَعزيزِ الأمانِ الفكريّ من مَنظورٍ قرآنيّ؛ وكيفَ تُسهمُ التَّربيةُ الإيمانيّةُ في حمايةِ الأسرةِ من الانحرافاتِ، ثم دَورِ العقلِ في تَشخيصِ الفِتنِ النَّوعيّةِ، وسُبلِ معالجتِها.

أمّا في بابِ البحوثِ والدِّراسات؛ فقد تمَّ تَسليطُ الضَّوءِ على منهجِ أهلِ البَيتِ عليهم السلام في تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميّ من الانحرافاتِ الفِكريّةِ والعَقديّة؛ بالإضافةِ إلى قراءةٍ في كتاب: «الأمن الفكريّ في نهجِ البَلاغة».

نَرجُو أن تُسهمَ هذه الدِّراساتُ والبحوثُ في إثراءِ النِّقاشِ حولَ هذا الموضوعِ المُهمِّ، خُصوصًا في ظلِّ التَّحدِّياتِ الفكريّةِ والعَقديّةِ التي تُواجهُها الأمّةُ في عَصرِنا الحاضِر..

والله ولي التوفيق

د. محمد محمود مرتضى